

الفصل الثاني
الدين والأسطورة

obeikandi.com

الدين والأسطورة

يرى علماء الأديان أن الأساطير ظاهرة ضرورية في المجتمعات الدينية؛ إذ لا يوجد مجتمع متدين، دون أن يعتقد كثير من أفرادها في سلسلة من الأساطير، التي تغطي جميع مناحي الحياة، لأن الكثرة الغالبة من المتدينين هم من متوسطي الثقافة، أو أقل، فليس لديهم من قوة العقل، وارتقاء الفكر ما يمكنهم من فهم مبادئ الدين وتعاليمه بصورة مجردة، فهم يحتاجون إلى ما يفسر لهم النصوص الدينية على نحو يقربها من عقولهم، ويبسطها بصورة تتناسب مع درجة ذكائهم ومستوى فكرهم.

ومن هنا قامت التعاليم الدينية لدى الشعوب البدائية على أساطير، إذ لا يوجد مبدأ من المبادئ إلا وقد جُسمَ في أسطورة، تحكى ما ينبغي على المرء عمله طبقاً لهذه المبادئ، أو تحذر من ارتكاب عمل ما، وإلا أصاب مقترف هذا العمل ما أصاب بطل الأسطورة، من كوارث ومصائب قد تصل إلى حد الموت، أو تحويله إلى شكل من أشكال الحيوانات، كالقردة، والخنزير، وغيرها مما ينفر المتدين من هذه الصورة، فيمثل للأوامر الدينية، حتى لا يلقي مثل هذا المصير.

ومن النادر أن تجرد لدى الشعوب البدائية توجيهاً نحو الخير، أو تنفيراً من الشر قائماً على مخاطبة العقل، وبيان ما يترتب على العمل من آثار صالحة للفرد والمجتمع، أو يشرح السلبيات التي قد تصيب الحياة بالدمار والهلاك، لو سلك الناس هذا المسلك، أو اندفعوا وراء هذا العمل أو ذاك، لأن طبيعة المجتمع البدائي تستلزم وجود الأساطير لتقريب التعاليم إلى الأذهان، وتوضيحها على نحو يحقق الهدف من وجود الدين، ألا وهو استقامة الأفراد، وصلاح المجتمع،

يقول " ول ديورانت " :

"... وأدرك أنه - أى يوليان، الإمبراطور الروماني المتفلسف - ما من دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية العادية، ويحركها، إلا إذا خلغ على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات، والقصص، والطقوس لتبهر العقول، ولشد ما تأثر بقدم الأساطير، وبانتشارها بين أمم العالم أجمع".^{٣٠}

نعم، لقد انتشرت الأساطير بين كل الأمم والشعوب، وسيطرت على التوجيه في كل أنحاء المعمورة، بل إنها من أقدم الظواهر - إن لم تكن أقدمها على الإطلاق - انتشاراً في المجتمعات الإنسانية، على اختلاف ثقافتها، وتنوع حضارتها، وتباين عقائدها، فلا يوجد شعب بدون أساطير: تعبر عن ثقافته، وتجسم مبادئ عقيدته وأحكام دينه، ولهذا سيطرت الأساطير على العقول والأفهام، بحيث لم تستطع التخلص منها على الإطلاق، إذ على الرغم من التقدم في مجال العقائد والأديان، من ناحية وضوح النصوص المقدسة، وتخلصها من كثير من التعبيرات التي توهم بالأوهام والخرافات، وبعدها عن كل ما من شأنه أن يمد هذه الظاهرة بما يساعدها على الانتشار، أو التمكين في المجتمع، فقد ظلت الأساطير منتشرة بين الجنس البشري، بل ازداد انتشارها، وتنوعت أساليب مروجيها، وخاصة في عصور الأزمات والكوارث: وبين الطبقات التي غيّبت عقول أفرادها بأى شكل من الأشكال، تحت تأثير اتجاهات فكرية، متعددة الأهداف، ومختلفة المصادر والاتجاهات.

فلو تتبعنا تاريخ الجنس البشري، لوجدنا أن الإنسان ظل خاضعاً في جميع مراحل تطوره لما تمليه عليه الأساطير، بل إنها من أقوى المؤثرات على نفسية

الإنسان في جميع العصور، فلم تفقد شيئاً من جوانب تأثيرها، ولم تضعف سيطرتها على توجيه السلوك في المجتمعات، إلا في فترات بداية الدعوات الدينية، إذ كان الرسل والدعاة يركزون على توجيه الناس إلى الإيمان بعيداً - إلى حد ما - عن الاستغراق في سرد الأساطير، بل كانت الجهود موجهة إلى إصلاح المجتمع عن طريق ربط أفراده بالمعبود، دون الدخول كلية في عالم الأساطير، حتى لا تضيق معالم العقيدة في مجال الأوهام، ومتاهات التخيلات، وسراديب التصورات البعيدة عن أرض الواقع الذي تعيشه المجتمعات... إلى أن أرسل الله محمداً ﷺ، فخلصت دعوته كلية من كل ما يمت إلى الأسطورة بصلة، إذ جاء القرآن الكريم - على عكس الكتب السابقة - خالياً من الأساطير، بل إنه رد على من اتهمه بذلك بأنه من لدن العزيز الحكيم:

﴿ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٦ ﴾ [الفرقان: ٥-٦]

[٥-٦]

غير أن تأثير الثقافات المنحدرة من العصور البدائية على الشعوب التي انتشر الإسلام فيها كان قوياً، لدرجة أنها لم تستطع التخلص منه كلية، فبرزت في الفكر الإسلامي بصور شتى، ونماذج مختلفة، تحت مظلة إسلامية، فبدت وكأنها إسلامية بحتة، أو حصلت على جواز سفر إسلامي للدخول إلى قلوب المتدينين وعقولهم، والسيطرة على سلوكهم في جميع مناحي الحياة.

ومن هنا نجد كثيراً من المسلمين يعتقدون في العديد من الظواهر البدائية كـ: تصديق الأعيب السحرة، وقراءة الطالع، وقدرة عين العائن على إلحاق الضرر بالمعيون.. وغير ذلك مما حوته أساطير الشعوب البدائية من خرافات وأوهام، أثبتت التجارب العلمية كنهها، وكشفت عن أسبابها، سواء كانت

تلك الأسباب مادية أو معنوية .

ومن العجيب أن المؤمنين بهذه الضواهر أجهدوا أنفسهم في البحث عن آية قرآنية تؤيد اتجاههم، وذلك بتفسيرها على نحو، بدا مقنعاً لمن لم يرزقه الله الفقه في الدين، وعلم التأويل السليم، فإذا لم يجدوا في القرآن الكريم، وضعوا أحاديث نسبوها إلى النبي ﷺ لتبرير اعتقادهم في تلك الأساطير .

لم يكن هذا الاتجاه ظاهرة استثنائية، اختصت بها الشعوب الإسلامية، بل هي من القواعد العامة في مجال المعتقدات على امتداد التاريخ الإنساني في جميع العصور، وبين مختلف الأجناس والأعراق؛ إذ ما من دين ظهر على وجه الأرض، إلا وتسرب إليه عدد من الأساطير والخرافات، عن طريق بعض ممن حملوا تعاليمه، وتصدروا قافلة الدعوة إليه، فتطرق التشويه إلى مبادئه، وتغلغل في سلوكيات المتدينين، على اختلاف طبقاتهم، وتنوع ثقافتهم. ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب في هذه الأمور، بل إن الشعب هو الذي أقنع رجال الدين بما يريد، ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الحواس والخيال، والحفلات، والمعجزات، والأساطير، والخوف، والأمل. فإذا خلا الدين من هذا كله، رفضه، أو عدّله حتى يُدْخِله فيه. ولقد كان من الطبيعي أن يلجأ الشعب الخائف الذي تحيط به الحرب، والخراب، والفقير، والمرضى... إلى الأضرحة، والكنائس الصغرى والكبرى، وإلى الأضواء الخفية، ونغمات الأجراس المطربة، وإلى المواكب، والأعياد والطقوس الممتعة، ليجد فيها سلواه.^{٣١}

هذه هي طبيعة الشعوب، لا تهدأ نفوس أفرادها، ولا تستقر عواطفهم، إلا

عن طريق سماع القصص الغامضة في أحداثها بما فيها من إغراق في الخيال، يبعدهم عن واقعهم المؤلم، فيستسلمون لما يُغَيِّب عقولهم في البحث عن حل لمشاكل حياتهم، ويركنون إلى الأوهام والخرافات، لأنها تريحهم بحلول واهية لهذه المشاكل، فيستكينون لها بغية الراحة من آلام البحث والتنقيب، واستشرافاً لحلول سحرية، تقضى على مصادر الآلامهم، وتُقدِّم لهم كل ما يساعدهم على العيش في أمن واطمئنان، وسعادة ورخاء.^{٣٢}

إذا كانت هذه هي طبيعة الشعوب التي استجاب لها رجال الدين، فشوهوا التعاليم الدينية بما يرضى العامة،

فهل يسلم المرء بوجود هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي؟

٣٢ (صور ابن طفيل هذه الظاهرة الاجتماعية في قصة " حيا بن يقظان " ، وخلصتها: أن حيا بن يقظان - الذي سميت القصة باسمه - أُلقي وهو طفل في جزيرة خالية من السكان، فأرضته عزة، وشب الفتي متوقد الذكاء، عظيم المهارة، فكان يصنع حذاءه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان، ودرس النجوم، وشرَّح الحيوانات حية وميتة، حتى وصل في هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء. ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين، وأثبت لنفسه وجود خالق، قادر على كل شيء، ثم عاش معيشة الزهاد، وحرَّم على نفسه أكل اللحوم، واستطاع أن يتصل اتصالاً روحياً بالعقل الفعال. وأصبح حياً بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس، وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى " أسال " استطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلقي بنفسه على الجزيرة، فالتقى بحيا، وكان هذا أول معرفة له بوجود بين الإنسان، وعلمه "أسال" لغة الكلام، وسره أن يجد: أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله، وأقر لِحياً بما في عقائد الناس الدينية في الأرض التي جاء منها من غلظة وخشونة، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة، إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة، وما أُلْدروا به من عقاب النار، واعتزم حياً أن يغادر جزيرته، ليهدي ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم، وأكثر منه فلسفة، فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم في السوق العامة إلى دينه الجديد، لكن الناس انصرفوا عنه، أو لم يفهموا أقواله، وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعي، إلا إذا مزج الدين بالأساطير والمعجزات، والمراسيم، والعقاب والثواب الإلهين. ثم ندم على إقحام نفسه فيما لا يعنيه، وغادر إلى جزيرته، وعاش مع " أسال " يرافقه الحيوانات الوديمة، والعقل الفعال. وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات.

وإذا حدث هذا اعتماداً على عدم إمكانية التخلص من ظاهرة تكاد يكون وجودها في المجتمعات الإنسانية ضربة لازب،

فهل يكون من الطبيعي أن تظهر في المجتمعات الإسلامية بنفس الصورة والهيئة التي ظهرت بها في المجتمعات غير الإسلامية؟

إذا قارنا النصوص الدينية في الإسلام (وهي القرآن الكريم) بما يقابلها في الأديان الأخرى في هذا المجال، لتبين لنا أن للقرآن الكريم خصائص لا تُحصَى، تمنع ظهور مثل هذه الخرافات بين المسلمين، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- خلوه من الأساطير على النحو الذي ظهر في الكتب المقدسة الأخرى.

- تركيزه على الجانب العقلي.

- حثه المسلمين على البحث عن أسباب الظواهر المادية.

- إستنكاره الركون إلى معلوم يرتكز على الظن والتخمين، وهوى النفس:

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨]

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٣﴾ [النجم: ٢٣]

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ [النجم: ٢٨]

﴿ ٢٨ ﴾ [النجم: ٢٨]

- طلبه الدليل المنطقي، والبرهان الواضح على صحة الدعاوى والقضايا

الفكرية في أى مجال من مجالات الحياة، وإلا أصبحت الدعوى فرضاً

هلامياً، وتصوراً نفسياً، لا يسندها دليل، ولا يدعمها منطق:

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ

أَمَانِيَّهُمْ قُلْ هَانُوا بَرَاهِنِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ [البقرة: ١١١]

ولهذا رفض المسلمون الأوائل أساطير الشعوب، واستنكروا كل ما يتنافى مع العقل والمنطق، فكان إنتاجهم الفكرى - فى معظمه - متمشياً مع روح القرآن الكريم، وخاضعاً لتوجهات المبادئ التى عاجلت النفس الإنسانية، فظهرت من شوائب الأساطير التى تُغَيِّب العقول، وتفت فى عضد النشاط الإنسانى، فتجعله يركن إلى أمانى هلامية، وتصورات خيالية، بعيدة عن الواقع، وخارجة عن إطار معطيات الحياة، ومقتضيات سنن الكون الطبيعية والإنسانية، كما أبعدتها عن الخرافات التى تخدر الشعوب، بما توحيه إلى الأفراد من مسلمات تحولهم إلى هياكل بشرية، لا تملك القدرة على الإسهام فى الحياة، فضلاً عن التأثير فى توجيهها، ودفع عجلة التقدم فى مجتمعاتها لتلحق بركب الحضارة، وتسير فى موكب التطور، مما جعل المسلم - بفضل هذه المبادئ الإسلامية الصافية الخالية من شوائب الخرافات - يلحق بالحضارة، التى كانت بعيدة عنه فكراً ونفسياً قبل ظهور الإسلام، ومتوارية عنه زماناً ومكاناً، إذ كان سلبياً قبل الإسلام اعتماداً على ما صورته له الأساطير من معجزات، تمبسط عليه من السماء. وكان متواكلاً استناداً إلى اتجاه فكرى آسن من طول ركوده، أخافه من الاعتماد على النفس، وألقى فى قلبه الرعب من البحث عن أسباب ما يحيط به من ظواهر مادية وغير مادية.

غير أن النفس الإنسانية المولعة بالخرافات والأساطير لم تتحرر كلية من طبيعتها، ولم تبعد كثيراً عن هذا العالم المليء بالغموض والألغاز، فرجعت رويداً رويداً إلى ما كان عليه الآباء والأجداد من تصديق لأحداث متخيلة، وأشكال لا علاقة لها بالواقع، واعتقاد فى مقولات لا تمت إلى العقل بصلة، وليس بينها وبين المنطق رباط، ولا تعتمد على دليل قاطع من القرآن الكريم، اللهم إلا ما قام به علماء الدين - تحت ضغط اتجاه العامة - من محاولة الربط

بين هذه الظواهر، وبين بعض نصوص القرآن الكريم التي تؤيد في ظاهرها هذا الاتجاه، إذا فسرت تفسيراً سطحياً.

ومما لاشك فيه أن هذه هي طبيعة الفكر الديني في جميع الأديان؛ إذ أنها - أي الأديان - مهما يكن من نبل أصولها، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات، لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى، وأنها - أي الخرافات - تنشأ بطبيعتها من العقول التي خيّم عليها، وأهكها تعب الجسم، ورهبة الروح في كفاحها للخلود، فتركن إلى الإيمان بالسحر إيماناً مطلقاً، بحيث لا يتطرق إليها الشك في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب، والكشف عن الكنوز المخبوءة، وغرس الحب في النفوس، وتعذيب الأعداء، واتقاء الحسد وغير ذلك من الأمور التي تتنافى مع العقل والمنطق. لكن لم تتطور هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي إلى الحد الذي تطورت إليه في المجتمعات الدينية الأخرى من: اعتداء على النصوص المقدسة:

- بمحوها،

- أو تحريفها

بل ظلت في دائرة تفسير القرآن الكريم، ووضع بعض الأحاديث النبوية، التي تؤيد هذا الاتجاه، أو ذاك، مما جعل إمكانية تصحيح مسار الفكر الإسلامي متاحة، إذ مادام النص سليماً، لم يُحرّف، ولم يدخله تغيير بالحذف أو الإضافة، فإن التخلص من الخرافات والأساطير يصبح ممكناً لو رزق الله المجتمع أناساً يتمتعون بالفهم السليم، والفكر الناضج، والنظرة الثاقبة، ويتخلصون من غريزة التطلع إلى الجاه والسلطان التي تجبرهم على إرضاء العامة، واستقطاب الجماهير، لأن طبيعة المجتمعات البشرية، وتركيب أفرادها النفسية والروحية، تحول - في الغالب الأعم - دون اجتماع ظاهرتين في شخص واحد، وهما:

- الإسهام جدياً في تصحيح ما اعوجج من المبادئ التي تقوم عليها حياة الإنسان، وتقويم ما انحرف من سلوكهم، مع الحصول على تأييد العامة له، والتفافهم حوله.

لأن حملته لواء الإصلاح، ونشاطه في مجال توضيح ما هم عليه من أخطاء، يجعله بمثابة الوالد الذي يؤدب ابنه العاق بعقاب أليم، لا يرى منه بُدّاً، لتقويمه وإصلاحه.

أو يصبح كطبيب يجبر مريضه الراض للعلاج على تجرع الدواء المر، وقديماً قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً * فليقس أحياناً على من يرحم

فمن يريد الإصلاح في أى مجال من مجالات الحياة في المجتمع، فلا ينبغي أن يترك زمام الأمور للعامة، لأنه لو فعل ذلك لتحول عمله إلى:

- تثبيت للانحراف بدل تقويمه،
- وإضفاء الشرعية على ما يضعف المجتمع، بدل أن يسهم في إرساء دعائم تقويمه،
- وتبرير للظواهر السلبية، التي تسبب في التخلف فكرياً واجتماعياً، فتتضاعف بذلك عوامل التجهيل والتعمية، وتنتشر دعاوى تغييب العقل على اختلاف أشكالها وألوانها، وتعدد مصادرها وأهدافها، فأحياناً تأخذ ثوب الاستغراق في الروحانيات، مع رفض عالم المادة بجميع جوانبه، وهذا هو ماساد في المجتمع الإسلامى منذ تدهور الفكر، وانحطاط الثقافة بعد القرن الرابع الهجرى.

وأحياناً أخرى تتلف بدعاوى براءة:

- تبهر العامة، وتضحك الخاصة من فرط ما يعتصرهم من الحزن والألم

على ما آلت إليه أحوال كثير من حملة الفكر، وانحدرت إليه أوضاع الدعاة، ومن يتصدرون ركب الإصلاح.

- توجع المشاعر الدينية، وتقلق عقول المفكرين الجادين، لأنهم يرون أنها سلبيات مدمرة على المدى البعيد.
 - تلهب مشاعر المؤمنين، وتخدر عقول الباحثين.
 - توقظ الأفئدة، وتُغَيِّب العقول!
- وهذا هو السائد الآن في المجتمع الإسلامي:

دعاوى براءة، دون مضمون سليم، ينير العقول، ويرسم منهجاً سليماً يدفع المسلم إلى التفكير فيما حوله من ظواهر، للبحث عن أسبابها، حتى يقضى على ما ينسج حولها من أساطير وخرافات، لازالت تفت في عضد المسلمين.... فقضت على حيويتهم باستكانة لأوهام، وركوئهم إلى أمان، تاركين مجال العمل لغيرهم، فسقطوا في قاع سحيق، حيث التخلف والتبعية.

وهذا ما دفعنا إلى البحث في نصوص القرآن الكريم التي يوحى ظاهرها بأنها أساطير، بينما البحث المتعمق فيها يبين أنها تدعو المسلم إلى البحث العلمي الذي يؤسس لحضارة الأمم وتقدم الشعوب، غير ناسين مغزى ماصيغت به على نحو يفهم منه العامة أنها أسطورة، وهذا من معالم الإعجاز القرآني الذي يخفي كنوزاً علمية، تكشف عنها عقول الباحثين عبر القرون والعصور، فكلما تقدمت البشرية في علومها واستكشافاتها، وُجِدَ من يكشف المزيد من أسرار القرآن الكريم وكنوزه.

الأساطير الدينية

العلاقة بين الدين والأسطورة علاقة تلازم، فلا يوجد دين على وجه الأرض - أيًا كان مصدره، سماويًا أو بشريًا - يخلو من الأسطورة؛ ذلك أنه - أي الدين - يخاطب جميع طبقات المجتمع، وهي مختلفة في ثقافتها، ومتفاوتة في قدرتها الذهنية، ومتباعدة في تقبلها للنصوص الدينية، فما يروق لطبقة الفلاسفة والمثقفين لا يدركه - بل لا يفهمه - من هم في الطبقة الثقافية الدنيا، أو المتوسطة في سلم العلم والإدراك، وهم الذين تستهويهم الأسطورة فينجذبون إلى سماعها، ويصغون إلى ما تدعو إليه من مبادئ وقيم، فيلتزمون بها، إن فعلاً أو اجتناباً.

فلو خلا الدين من الأسطورة، وركز على الحقائق العلمية، والنظريات الفلسفية، لاستغلق فهمها على معظم أفراد المجتمع، حتى على كثير ممن هم في الطبقة العليا من السلم الثقافي والعلمي، لأن الإنسان، مهما كانت درجته العلمية، ومكانته بين الفلاسفة ينجذب - أحياناً - إلى بريق وغرائب الأحداث الأسطورية؛ ذلك أن من النادر - وخاصة في المجتمعات النامية - أن يتخلص إنسان من الموروث الأسطوري، مهما كانت درجة ثقافته ومركزه العلمي، وعلى أي شكل حضاري كانت حياته ومعيشته، إذ يقع العالم والجاهل، والمثقف وغير المثقف، والبدائي والحضاري تحت تأثير هذا الاتجاه، حيث يرى نفسه أمام الظواهر التي لا يستطيع لها تفسيراً، أسيراً لهذا الاعتقاد، وخاصة عندما تعجز قدرته عن معرفة أسباب ما يصيبه، أو يصيب أحداً من أقاربه، أو ممن يتصلون به، ويحتك بهم في حياته. ولذلك نراه يميل إلى تصديق ما يروى له من أساطير، تبرر اعتقاده في هذا المجهول، وتؤكد له وقوع مثل هذه الظواهر

في قديم الزمان وحديثه، فترتاح نفسه، ويستقر في قلبه ما يطمئنه على أن ما يعتقد في هذا المجال ليس بعيداً عن الواقع، بل هو حقيقة مؤكدة، وإن لم يتوصل الإنسان بعد إلى سبب مادي يؤكدها. وكأن تلك المرويات الخرافية هي الدليل الذي لا ينقض - على الأقل في وجدانه - على صحة ما يعتقد معظم الناس - إن لم يكن كلهم - في أسباب الظواهر من أساطير وخرافات، فيطمئن قلبه، وترتاح نفسه، بل تراه ينبرى للدفاع عنه، إذا ووجه بما يشكك في صحته، أو يزعزع الإيمان به، فيظل يردد ما سمعه من أساطير العصور الماضية حول هذا الموضوع بأسلوب يوحي للسامع بأنه قد عاشها، ورأى هذه الأحداث بأم عينه. وهذا يؤكد ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن أساطير المجتمعات البدائية لم تختلف كلية من المجتمعات المعاصرة، وخاصة إذا كانت أسباب ما تدور حوله لازالت مجهولة م يكتشفها العلم بعد.

ولهذا وردت الأساطير في النصوص لمقدسة لجميع الأديان، لافرق في ذلك بين السماوية والبشرية؛ وانتشرت في المجتمعات، إذ ينتمى كثير من القصص التي تروى في العهد القسّم وفي آثار سامية أخرى إلى ظاهرة الأساطير التي صيغت في قديم الزمان، ومن أشهر الأساطير العربية: الغول، والعنقاء. وقد أكثر الشعراء من ذكرهما وضربوهما مثلاً في القلة والندرة، كما سيطرت فكرة الهامة في الشعر العربي زماناً، كما اشتهرت أسطورة الطائر أو الدابة التي تخرج من رأس القتيل وتظل هائمة تطلب القصاص، وتردد: " اسقوني اسقوني "، ولا قدأ حتى يؤخذ بالثار من القاتل، فتروى من دمه فتسكن. وقد وظف كثير من الشعراء والأدباء في العصر الحديث الأسطورة، واتخذوها قناعاً رمزياً لكثير من المعاني والأفكار.

أما اليهود، فقد تغلغت الأسطورة في كتابهم المقدس، ففي نص التوراة

تشابه مريب مع الأساطير الوثنية، بل إن ملحمة الخلق البابلية تتفق مع التوراة بشكل مثير للدهشة، كما اعتقدوا بأن سبب لون السماء بالأزرق هو وجود مياه فوقها، وغير ذلك من الأساطير التي كثرت في الاتجاه الغنوصي، وهي كلمة يونانية: "غنوصيس Gnosis ومعناها: "علم"، أو "معرفة" أو "حكمة" أو "عرفان". وتستخدم الكلمة الأخيرة في المعجم العربي للإشارة للغنوصية. والغنوصية حركة فلسفية وتعاليم دينية متنافرة، أخذت شكل أنساق أسطورية جميلة في غاية التنوع وعدم التجانس، انتشرت في الشرق الأدنى القلتم في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. ورغم عدم تجانس أساطيرها وتعاليمها وأفكارها، بل تنافرها، فيمكن القول بأن كل الأنساق الغنوصية تدور في إطار الحلولية الكمونية. وتنطلق الحلولية الغنوصية عادة من رؤية اثنية ازدواجية صارمة، ترى أن هناك إلهين، وليس إلهاً واحداً خفياً خيراً (إله العهد الجديد)، وإلهاً ظاهراً شريراً (إله العهد القديم). وإله الظاهر هم أيضاً الإله الصانع الذي خلق هذا العالم المادى.^{٣٣}

(٣٣) والغنوصية ذات أصول يهودية، وأصبحت بعداً أساسياً في اليهودية الحاخامية، وفي تراث القبالة. وهي في واقع الأمر النموذج المتكرر والكامن وراء معظم (إن لم يكن كل) الفلسفات والأنساق الحلولية الكمونية الواحدة (الروحية والمادية) عبر التاريخ، ومن ذلك العلمانية الشاملة، وهي أهم تعبير عن الواحدة الكمونية، وعن التزعة الطبيعية المادية وأكثرها تبلوراً، ولذا أصبحت كلمة: " غنوصية " في اللغات الغربية علماً على المذاهب الباطنية، وعلى المرطقات الجوهرية التي تقف على الطرف النقيض من العقائد السماوية التوحيدية.]